ثبت له ان الضرر حاصل وانهُ يمكن صرف الاقذار في نهر عقربا امر بعمل كل ما يلزم لذلك على نفقات الحكومة قائلاً انهُ من المنافع العمومية التي يجب ان تتحمل الحكومة نفقاتها لانها مكلفة بدفع الضرر عن الرعية

ومنها ان الجزارين رفعوا سعر اللحم حتى صار ثمنهُ فاحشاً فامر ابرهيم باشا مجلس الشورى ان يبتاع الغنم ويعين من يذبحهُ ويبيعهُ بثمن معتدل ولما رأى ان الجزارين لم يرعووا امر ان يترك لهم الربح الكافي وتؤخذ منهم الزيادة وتنفق في المصالح العمومية فارتدعوا

الاَّ ان ثقل الضرائب وانقطاع ارزاق ابناء العشائر وساعي الاتراك والاوربيين حملت اهالي سورية على شق عصا الطاعة فجاهروا بالعصيان وفازوا باخراج ابرهيم باشا من بلادهم كما سيجيء

الشيخ محمد عبده

سيرتهُ ومآثرهُ

نشرت جريدة المنار ترجمة مسهبة للشيخ محمد عبده ووعدت بنشر كتاب مطوَّل جمعت فيهِ اثارهُ ومآثرهُ وما كتب عنهُ . واجتمع كثيرون من تلامذتهِ واصدقائهِ ومريديهِ في الاربعين من وفاتهِ وتلوا خطباً وقصائد في سيرتهِ ومآثرهِ في الجامع الازهر ومجلس الشورى ومحاكم القضاء والبلاد الاسلامية عامَّة فكثرت لدينا المواد فوق ما نعرفهُ بالخُبْر من امر الفقيد فاقتطفنا منها ما يأتي :

ولد سنة ١٢٦٦ للهجرة من ابوين متوسطي الحال ووالدهُ من بلدة محلة نصر في مديرية البحيرة وينتمي بيت والدهِ الى بني عدي من العرب وقال انهم من ذرية عمر بن الخطاب . وقد سمعنا من الفقيد انهُ من العرب الذين هاجروا من بلاد المغرب الى القطر المصري وقال صاحب المنار انهُ نشأ كما ينشأ امثالهُ من ابناء البيوت المعروفة في القرى ولم يدخل المكتب لتعلم القراءة والكتابة الاَّ بعد ان جاوز العاشرة من سنهِ وقد كتب عن مبدإ تعلمهِ وتأدبهِ ما نصهُ

" تعلمت القراءة والكتابة في منزل والدي ثم انتقلت الى دار حافظ قرآن قرأت عليهِ وحدي جميع القرآن اول مرة ثم اعدت القراءة حتى أتممت حفظهُ جميعهُ في مدة سنتين ادركني في ثانيتهما صبيان من اهل القرية جاءوا من مكتب آخر ليقرأوا القرآن عند هذا الحافظ ظناً منهم ان نجاحي في حفظ القرآن كان من اثر اهتمام الحافظ . بعد ذلك حملني

والدي الى طنطا حيث كان اخي لامي الشيخ مجاهد رحمهُ الله لأُجوّد القرآن في المسجد الاحمدي لشهرة قرائهِ بفنون التجويد وكان ذلك في سنة ١٢٧٩ هجرية

"ثم في سنة احدى وثمانين جلست في دروس العلم وبدأت بتلقي شرح الكفراوي على الاجرومية في المسجد الاحمدي بطنطا وقضيت سنة ونصفاً لا افهم شيئاً لرداءة طريقة التعليم فان المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية او فقهية لا تفهمها ولا عناية لهم بتفهيم معانيها لمن لم يعرفها فادركني اليأس من النجاح وهربت من الدرس واختفيت عند اخوالي مدة ثلاثة اشهر ثم عثر عليَّ اخي فاخذني الى المسجد الاحمدي واراد اكراهي على طلب العلم فأبيت وقلت لهُ : قد أيقنت ان لا نجاح لي في طلب العلم ولم يبق عليَّ الاَّ ان اعود الى بلدي واشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثير من اقاربي : وانتهى الجدال بتغلبي عليهِ فاخذت ما كان لي من ثياب ومتاع ورجعت الى محلة نصر على نية ان لا اعود الى طلب العلم وتزوجت في سنة ١٢٨٢ على هذه النية

"فهذا اول اثر وجدت في نفسي من طريقة التعليم في طنطا وهي بعينها طريقتهُ في الازهر وهو الاثر الذي يجدهُ خمسة وتسعون في المئة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هذا السبيل في التعليم — سبيل القاء المعلم ما يعرفهُ او ما لا يعرفهُ بدون ان يراعي المتعلم ودرجة استعدادهِ للفهم . غير ان الاغلب من الطلبة الذين لا يفهمون تغشهم انفسهم فيظنون انهم فهموا شيئاً فيستمرون على الطلب الى ان يبلغوا سن الرجال وهم في احلام الاطفال ثم يبتلى بهم الناس وتصاب بهم العامة فتعظم بهم الرزية لانهم يزيدون الجاهل جهالة ويضلون من توجد عندهُ داعية الاسترشاد ويؤذون بدعاويهم من يكون على شيء من العلم ويحولون بينهُ وبين نفع الناس بعلمهِ

"بعد ان تزوجت باربعين يوماً جاءني والدي صحوة نهار والزمني بالذهاب الى طنطا لطلب العلم وبعد احتجاج وتمنع واباء لم اجد مندوحة عن اطاعة الامر ووجدت فرساً أُحضر فركبتهُ واصحبني والدي باحد اقاربي وكان قوي البنية شديد البأس ليشيعني الى محطة (ايتاي البارود) التي اركب منها قطار السكة الحديدية الى طنطا . كان اليوم شديد الحر والريح عاصفة ملتهبة سافياء تحصب الوجه بشبه الرمضاء فلم استطع الاستمرار في السير فقلت لصاحبي اما مداومة المسير فلا طاقة لي بها مع هذه الحرارة ولا بدَّ من التعريج على قرية انتظر فيها ان يخف الحر فابى عليَّ ذلك فتركتهُ واجريت الفرس هارباً من مشادته وقلت اني ذاهب الى (كنيسة ادرين) — بلدة غالب سكانها من خؤولة ابي — وقد فرح بي

شبان القرية لانني كنت معروفاً بالفروسية واللعب بالسلاح واعلو أن أقيم معهم مدة يلهو فيها كل منا بصاحبه . أدركني صاحبي وبقي معي الى العصر وارادني على السفر فقلت لهُ خذ الفرس وارجع وسأذهب صباح الغد وان شئت قلت لوالدي انني سافرت الى طنطا فانصرف وأخبر بما أخبر وبقيت في هذه القرية خمسة عشر يوماً تحولت فيها حالتي " وبدلت فيها رغبة غير رغبتي "

" ذلك ان أحد اخوال أبي واسمهُ الشيخ درويش سبقت لهُ اسفار الى صحراء ليبيا ووصل في اسفاره الى طرابلس الغرب وجلس الى السيد محمد المدني والد الشيخ ظافر المشهور الذي كان قد سكن الاستانة وتوفي بها وتعلم عندهُ شيئاً من العلم واخذ عنهُ الطريقة الشاذلية وكان يحفظ الموطأ وبعض كتب الحديث ويجيد حفظ القرآن وفهمهُ ثم رجع من اسفاره الى قريتهِ هذه واشتغل بما يشتغل بهِ الناس من فلح الارض وكسب الرزق بالزراعة

" وان هذا الشيخ جاءني صبيحة الليلة التي بتها في الكنيسة وبيدهِ كتاب يحتوي على رسائل كتبها السيد محمد المدني الى بعض مريديهِ بالاطراف بخط مغربي دقيق وسألني ان اقرأ لهُ فيها شيئاً لضعف بصرهِ فدفعت طلبهُ بشدة ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ونفرت منهُ اشد النفور ولما وضع الكتاب بين يدي رميتهُ الى بعيد لكن الشيخ تبسم وتجلى بلطف مظاهر الحلم ولم يزل بي حتى اخذت الكتاب وقرأت منهُ بضعة اسطر فاندفع يفسر لي معاني ما قرأت بعبارة واضحة تغالب اعراضي فتغلبهُ وتسبق الى نفسي . وبعد قليل جاء الشبان يدعونني الى ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة في نهر قريب من القرية فرميت الكتاب وانصرفت اليهم . بعد العصر جاءني الشيخ بكتابهِ وألحَّ عليَّ في قراءة شيء منهُ فقرأت وفسر ثم تركتهُ الى اللعب وفعل في اليوم الثاني كما فعل في الاول . اما اليوم الثالث فقد بقيت اقرأ لهُ فيهِ وهو يشرح لي معاني ما اقرأ نحو ثلاث ساعات لم أمل فيها فقال لي انهُ في حاجة الى الذهاب الى المزرعة لبعض العمل فيها فطلبت منهُ ابقاء الكتاب معي فتركهُ ومضيت اقرأهُ وكلما مررت بعبارة لم افهمها وضعت عليها علامة لأسألهُ عنها الى ان جاء وقت الظهر وعصيت في ذلك اليوم كل رغبة في اللعب وهوى ينازعني الى البطالة . وعصر ذلك اليوم سألتهُ عما لم افهمهُ فابان معناهُ على عادتهِ وظهر عليهِ الفرح بما تجدد عندي من الرغبة في المطالعة والميل الى الفهم

" كانت هذه الرسائل تحتوي على شيء من معارف الصوفية وكثير من كلامهم في آداب النفس وترويضها على مكارم الاخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل وتزهيدها في الباطل من

مظاهر هذه الحياة الدنيا

" لم يأت عليّ اليوم الخامس الاّ وقد صار ابغض شيء اليّ ما كنت احبهُ من لعب ولهو وخفخفة وزهو . وعاد احب شيء اليّ ما كنت ابغضهُ من مطالعة وفهم وكرهت صور اولئك الشبان الذين كانوا يدعونني الى ما كنت احب ويزهدونني في عشرة الشيخ رحمة الله فكنت لا احتمل ان ارى واحداً منهم بل افر من لقائهم جميعاً كما يفر السليم من الأجرب. في اليوم السابع سألت الشيخ ما هي طريقتكم فقال طريقتنا الاسلام فقلت اولیس كل هؤلاء الناس مسلمين ؟ قال لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الامر ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب . هذه الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندي من المتاع القديم — متاع تلك الدعاوي الباطلة والمزاعم الفاسدة متاع الغرور باننا مسلمون ناجون وان كنا في غمرة ساهين. سألتهُ ما وردكم الذي يتلى في الخلوات او عقب الصلوات . فقال لا ورد لنا سوى القرآن نقرأ بعد كل صلاة اربعة ارباع مع الفهم والتدبر : قلت انّي لي ان افهم القرآن ولم اتعلم شيئاً قال اقرأ معك ويكفيك ان تفهم الجملة وبركتها يفيض الله عليك التفصيل واذا خلوت فاذكر الله : على طريقة يبنها . واخذت اعمل على ما قال من اليوم الثامن فلم تمض عليّ بضعة ايام الاّ وقد رأيتني اطير بنفسي في عالم آخر غير الذي كنت اعهد واتسع لي ما كان ضيقاً وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيراً . وعظم عندي من امر العرفان والتنوع بالنفس الى جانب القدس ما كان صغيراً. وتفرقت عني جميع الهموم ولم يبقَ لي الاّ هم واحد وهو ان اكون كامل المعرفة كامل ادب النفس ولم اجد إماماً يرشدني الى ما وجهت اليهِ نفسي الاّ ذلك الشيخ الذي اخرجني في بضعة ايام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة ومن قيود التقليد الى اطلاق التوحيد. هذا هو الاثر الذي وجدتهُ في نفسي من صحبة احد اقاربي وهو الشيخ درويش خضر من اهالي (كنيسة ادرين) من مديرية البحيرة . وهو مفتاح سعادتي ان كانت لي سعادة في هذه الحياة وهو الذي ردّ لي ما كان غاب من غريزتي وكشف لي ما كان خفي عني مما اودع في فطرتي

" وفي اليوم الخامس عشر مرّ بي احد سكان بلدتنا (محلة نصر) فاخبرني ان والدتي ذهبت الى طنطا لتراني فعلمت ان سيقول لوالدي انني لا ازال في الكنيسة فاصبحت مبكرا الى طنطا خوف عتاب الوالد واشتداده في اللوم لانني لو كنت اقمت الف دليل على انني وجدت في مهربي مطلبهُ ومطلبي لما اقتنع

" ذهبت الى طنطا وكان ذلك قرب آخر السنة الدراسية في شهر جمادى الاخرة من

سنة ١٢٨٢ هجرية لكن اتفق ان بعض المشايخ كانت ماتت بنتهُ فعاقهُ الحزن عليها عن اتمام شرح الزرقاني على العزية وآخر عرض لهُ عارض منعهُ عن اتمام شرح الشيخ خالد على الاجرومية فادركت كلا منهما في اوائل الكتاب الذي كان يدرسهُ وجلست في الدرسين فوجدت نفسي افهم ما اقرأ وما اسمع والحمد لله . وعرف ذلك مني بعض الطلبة فكانوا يلتفون حولي لا طالع معهم قبل الدرس ما سنتلقاهُ . وفي يوم من شهر رجب من تلك السنة كنت اطالع بين الطلبة واقرر لهم معاني شرح الزرقاني فرأيت امامي شخصاً يشبه ان يكون من اولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب فلما رفعت راسي اليهِ قال لي ما معناهُ : ما احلى حلوى مصر البيضاء : فقلت لهُ واين الحلوى التي معك ؟ فقال سبحان الله من جد وجد : ثم انصرف فعددت ذلك القول منهُ الهاماً ساقهُ الله اليَّ ليحملني على طلب العلم في مصر دون طنطا

"وفي منتصف شوال من تلك السنة ذهبت الى الازهر وداومت على طلب العلم على شيوخهِ مع محافظتي على العزلة والبعد عن الناس حتى كنت استغفر الله اذا كلمت شخصاً كلمة لغير ضرورة . وفي اواخر كل سنة دراسية كنت اذهب الى (محلة نصر) لاقيم فيها شهرين من منتصف شعبان الى منتصف شوال . وكنت عند وصولي الى البلد اجد خال والدي الشيخ درويشاً قد سبقني اليهِ فكان يستمر معي يدارسني القرآن والعلم الى يوم سفري . وكل سنة كان يسألني ماذا قرات فاذكر لهُ ما درست فيقول : ما درست المنطق مادرست الحساب ما درست شيئاً من مبادىء الهندسة : وهكذا وكنت اقول لهُ بعض هذه العلوم غير معروف الدراسة في الازهر فيقول : طالب العلم لا يعجز عن تحصيلهِ في اي مكان : فكنت اذا رجعت الى القاهرة التمس هذه العلوم عند من يعرفها فتارةً كنت اخطئ في الطلب واخرى اصيب الى ان جاء المرحوم السيد جمال الدين الافغاني الى مصر او اخر سنة ١٢٨٦

"وقد صاحبتهُ من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧ واخذت اتلقى عنهُ بعض العلوم الرياضية والحكمية (الفلسفية) والكلامية وادعو الناس الى التلقي عنهُ كذلك واخذ مشايخ الازهر والجمهور من طلبتهِ يتقولون عليهِ وعلينا الاقاويل ويزعمون ان تلقي تلك العلوم قد يفضي الى زعزعة العقائد الصحيحة وقد يهوي بالنفس في ضلالات تحرمها خيري الدنيا والاخرة فكنت اذا رجعت الى بلدي عرضت ذلك على الشيخ درويش فكان يقول لي : ان الله هو العليم الحكيم ولا علم يفوق علمهُ وحكمتهُ وان اعدى اعداء العليم هو الجاهل واعدى اعداء الحكيم هو السفيه وما تقرب احد الى الله بافضل من العلم والحكمة فلا شيء من العلم بممقوت عند الله ولا شيء من الجهل بمحمود لديهِ الاَّ ما يسميهِ بعض الناس علماً وليس في الحقيقة بعلم كالسحر

والشعوذة ونحوها اذا قصد من تحصيلها الاضرار بالناس: "

هذا ما كتبهُ الفقيد عن مبدإ تربيتهِ وتعلمهِ في ترجمتهِ التي كتبها في قبل اشتداد مرضهِ الاخير وكان قد حدثني قبل بشيء من ذلك ومنهُ انهُ لم يكن يواظب على حضور دروس من لا ينهم او لا يستفيد منهم وانهُ ربما كان يحضر درس احدهم وفي يدهِ كتاب آخر يطالع فيهِ مدة الدرس وان من شيوخهِ الذين فهم منهم واستفاد في اول تحصيلهِ الشيخ محمد البسيوني وانهُ بعد الحضور في الازهر ثلاث سنين ملَّ الدروس المعتادة كأنهُ اخذ حظهُ منها وصارت نفسهُ تطلب شيئاً جديداً وتميل الى العلوم العقلية ولكنهُ حضر جميع الكتب وفهمها ولم يكن يرتاح الى اعادة شيء منها . وكان الشيخ حسن الطويل ممتازاً في الازهر بعلم المنطق فحضرهُ عليهِ ولم يكن يشفي ما في نفسهِ بل كانت تتشوق دائمًا الى علم غير موجود فكان يبحث في خزائن الكتب الازهرية عن طلبتهِ فيظفر ببعض الشيء ومما ظفر بهِ القطب على الشمسية ناقصاً . وقرأ الشيخ حسن الطويل لهم شيئاً من الفلسفة ولكن لم يكن يجزم بان المعنى كذا بل كان الدرس احتمالات او اشبه بالحزر فيما يفهم حتى جاء السيد جمال الدين فسكنت اليهِ نفسهُ من اضطرابها ووجدت عندهُ جميع طلبتها واقصى امنيتها . واخبرني رحمهُ الله تعالى ان الذي اخبرني بقدوم السيد جمال الدين هو احد المجاورين في رواق الشوام قال لهُ انهُ جاء مصر عالم افغاني عظيم وهو يقيم في خان الخليلي فسر بذلك واخبر الشيخ حسناً ودعاهُ الى زيارتهِ معهُ فالفياهُ يتعشى فدعاهما الى الاكل معهُ فاعتذر فطفق يسألهما عن بعض آيات القرآن وما قالهُ المفسرون والصوفية فيها ثم يفسرها لهم فكان هذا مما ملأ قلب الفقيد بهِ عجباً وشغفهُ حباً

وقال حسن باشا عاصم في ترجمتهِ التي تلاها يوم تذكار الاربعين ان الفقيد "عرض نفسهُ في سنة ١٢٩٤ هـ على مجلس الامتحان طالباً شهادة العالمية من الازهر فنال الشهادة رغماً عن تشديد اكثر المشايخ عليهِ لحضورهِ على السيد جمال الدين فهذا دور التعلم والتربية واما دور العمل والاصلاح فقد بدأ بهِ في اثناء الطلب . كان يقرأ دروساً في التوحيد والمنطق وغير ذلك يحضرها الجم الغفير من الازهريين فيرون كتباً جديدة من كتب سلفهم واسلوباً جديداً يتدفق فصاحة وبلاغة وفتح لهم باب المذاكرة والبحث فكانوا يسهرون لذلك حتى مطلع الفجر

وبعد ان صار مدرساً رسمياً زادت عنايتهُ بذلك وكاد الازهر لذلك العهد ينهض نهضة تحيي العلم والدين ولكن حال دون ذلك اضطهاد المرحوم الشيخ عليش للفقيد لوشاية مكنتها من نفسهِ حضور الفقيد على السيد جمال الدين

وكان غرض السيد جمال الدين الاصلاح الاسلامي بواسطة الحكومة لانهُ اسرع فائدة وانفع ثمرة لو تم . وقد مهد لهُ السيد بتلاميذهِ ومريديهِ حتى كاد ينجح بعد عزل الخديو اسماعيل وتولية الخديو توفيق الذي كان متصلاً بهِ قبل ذلك . وكان هو المأمول لتنفيذ الاصلاح ولكن ما كاد يستقر على كرسي الخديوية حتى اوغر الوشاة صدرهُ على السيد وعلى تلميذهِ الاول ويمينهِ في العمل فنفي السيد الى خارج القطر وذهب الشيخ الى بلدهِ (محلة نصر) وكان ذلك في رمضان سنة ١٢٩٦ هـ

كان الفقيد قبل ذلك عين معلماً للتاريخ في مدرسة دار العلوم وللغة العربية في مدرسة الالسن فجرى في التدريس على طريقة جديدة كانت مبدأ الاصلاح والنجاح . وكان يقرأ في مدرسة دار العلوم مقدمة ابن خلدون ولم نقرأ قبلهُ درساً في مصر وكان يسلك في تدريسها مسلك الاستاذ المجتهد في علم الاجتماع والعمران ولو طال الزمان على درسهِ هذا لربى رجالاً واحيا آمالاً

وفي سنة ١٢٩٧ هـ عينهُ صاحب الدولة رياض باشا محرراً في الجريدة الرسمية ثم جعلهُ رئيس التحرير فيها ورغب اليهِ في سن قانون للمطبوعات ففعل . وكان من احكام ذلك القانون انهُ يجب على جميع مصالح الحكومة ان تخبر قلم المطبوعات باعمالها واحكامها ومشروعاتها وان لرئيس التحرير حق الانتقاد على ما يراهُ منتقداً منها كما انهُ لهُ حق المراقبة على الجرائد التي تنشر في البلاد المصرية ومعاقبتها حتى بالتعطيل الدائم . ومن احكامهِ ان ينشئ رئيس التحرير في الجريدة الرسمية قسماً ادبياً تنشر فيهِ المقالات في التربية والآداب والتدبير وغير ذلك من الامور النافعة في الاخلاق والعادات

بهذا القانون صار الفقيد كالمسيطر على عمال الحكومة والمربي للامة وقد قام بالامرين حق القيام فكانت الجريدة الرسمية تنتقد ما تكتبهُ مصالح الحكومة حتى اضطر رؤساء الكتاب الى تلقي دروس في العربية وانشئت لذلك مدارس ليلية تبرع الفقيد بالقاء دروس في بعضها وتنتقد الاعمال حتى كان ذلك عوناً على اصلاحها لما يتوقاهُ العمال من الانتقاد والتشهير بل من المؤاخذة بعد ذلك اذ المنتقد انما ينتقد بلسان الحكومة — بل كان من القانون ان لرئيس التحرير الحق في مطالبة الحكومة بالتحقيق عما تقولهُ الجرائد المحلية في عمال الحكومة فان ظهر صدق ظعن في احد فعلى الحكومة ان تؤاخذهُ . وكان يؤاخذ الجرائد بفساد عباراتها حتى انهُ انذر بعض الجرائد بالتعطيل اذا لم تأتِ بمحرر بارع يصحح عبارتها بعد ايام حددها ففعلت فكان وجودهُ في المطبوعات مبدأ النهضة القلمية في القطر المصري بعد ان اعدهُ السيد جمال

الدين وافراد آخرين لذلك . وقد كان من اثر انتقاده على الحكومة انشاء مجلس اعلى لنظارة المعارف هو احد اعضائه والغرض منهُ ترقية التربية والتعليم في البلاد

بعد ذلك جاءت الثورة فاوقفت سير هذا الاصلاح في اللغة والاعمال والآداب كما اوقفت غيرهُ مما كانت الحكومة شرعت فيهِ بهمة رياض باشا

لذلك كان الفقيد شديد الانتقاد على العرابيين قولاً وكتابة ولكن الوشاية اتهمتهُ فحكم عليهِ بالنفي ثلاث سنين

اذا اراد الله بعبد خيرًا اهَّلهُ للاستفادة من كل شيء ولقد كانت تربية الفقيد تحتاج في كمالها الى السياحة في الارض واختبار الامم فتمَّ لهُ ذلك بهذا النفي

ذهب الى سورية واقام فيها نحو سنة ثم سافر الى اوربا واقام نحو عشرة اشهر التقى فيها باستاذهِ وصديقهِ السيد جمال الدين على موعد واصدرا جريدة العروة الوثقى التي كان لها اعظم تأثير في العالم الاسلامي ولكن لم يطل عليها العهد اذ منع دخولها في مصر والهند وهما القطران المقصودان بها اولاً وبالذات ثم عاد الى سورية مارًّا بتونس فاقام فيها عدة سنين

كان في بيروت يدرس العقائد الاسلامية في المدرسة السلطانية ويقرأ درسًا في التفسير في الجامع الكبير ودرسًا آخر في جامع آخر وكانت دارهُ ملتقى العلماء والفضلاء من جميع الطوائف وكان يكتب في الجرائد بعض المقالات النافعة والنصائح الدينية وقد اختبر حال المسلمين وغيرهم من الطوائف اتم الاختبار

وفي سنة ١٣٠٦ عاد الى مصر وتسابق العظماء الى الشفاعة فيهِ لدى الخديوي السابق فعفا عنهُ وامر بان يعين قاضيًا في المحاكم الاهلية فلما علم بذلك استاء وسعى في ان يكون معلمًا في دار العلوم قائلاً اني خلقت لان اكون معلمًا لا قاضيًا فلم يقبل الخديوي الاَّ ان يكون قاضيًا فرضي رحمهُ الله بالقضاء وارتقى الى اعلى مرتبة فيهِ وكان فيهِ قاضي العدل والانصاف لا قاضي القانون والرسوم فقد كان لا يحكم بنص القانون اذا لم ينطبق معهُ على العدل والانصاف بل يعمد الى الصلح وكان يتوخى التربية في احكامهِ حتى طهر بعض البلاد التي تولى القضاء فيها من دنس التزوير

منذ اكثر من ثلاثين سنة فكر بعض عقلاء هذه الامة في طريقة لارتقاء علماء الدين الى درجة ينفعون بها العالم الاسلامي كما نفعهُ سلفهم فكان رأي البعض ان لا سبيل الى ذلك الاَّ بايجاد مدرسة تدرس فيها علوم الدين والعلوم الاخرى وكان من وراء ذلك انشاء مدرسة دار العلوم سنة ١٢٩٠ هـ والبعض الاخر كان يرى ان اقرب الطرق للوصول الى هذا

الغرض هو اصلاح الازهر. وكان الفقيد على هذا الرأي ولذلك ما كان يجد فرصة الاّ انتهزها لتحقيق امانيهِ حتى انهُ لما اتصل بسمو الجناب الخديوي عباس الثاني في اول ولايتهِ ونالـــ الحظوة عندهُ تعين عضوًا في مجلس ادارة الازهر وتمكن من العمل في اصلاح التعليم والتربية الدينية فيهِ لاعتقادهِ انهُ اصلاح اسلامي عام بنتشر نورهُ في جميع بلاد الاسلام. وفي سنة ١٣١٧ قلدهُ سمو الجناب الخديوي منصب افتاء الديار المصرية فكان بهِ لهذا المنصب الشأن العظيم حتى كاد يكون مرجع الافتاء في العالم الاسلامي

وكان من مقتضى منصب الافتاء ان كان رحمهُ الله عضوًا في مجلس الاوقاف الاعلى فكان نبراسًا للمجلس يستضيءُ برأيهِ في تطبيق اعمالهِ على احكام الشرع الشريف وفي حل المشكلات. ومن اقتراحاتهِ المفيدة ان تشكلت لجنة تحت رئاستهِ وضعت نظامًا للمساجد لو عمل بهِ كما هو لعمرت بيوت الله وبيوت خدمتها ولكانت عونًا على احياء علوم الدين

عقب تقلدهِ منصب الافتاء عين عضوًا في مجلس شورى القوانين فكان للمجلس على عهدهِ من الخدمة النافعة والاحترام ما لم يكن لهُ من قبل فقد كان عامل التوفيق بين المجلس والحكومة وكان اهم غرض لهُ من التعب الشديد في المجلس تعويد الامة دقة البحث في امورها وتربية الراي العام فيها. ولا ننسَ من خدمتهِ للعلوم الاسلامية رئاستهُ لجمعية احياء العلوم العربية فقد أُسست هذه الجمعية في سنة ١٣١٨ لاحياء كتب سلف هذه الامة وافاضل علمائها وكانت فاتحة اعمالها طبع كتاب المخصص لابن سيده في اللغة وهو كتاب لا نظير لهُ في موضوعهِ. وقد تولى تصحيحهُ مع علامة اللغة المرحوم الشيخ محمد محمود الشنقيطي وان الفضل في خدمة الشنقيطي لهذا الكتاب راجع الى فقيدنا فانهُ لولاهُ لما اقام في هذه البلاد. وقد شرعت الجمعية بعد طبع المخصص في احياء مدون الامام مالك رضي الله عنهُ. وللفقيد من الخدمة في استحضار نسخها من تونس وفاس وغيرها من البلاد ما لولاهُ لم يكمل لنا استنساخ الكتاب كلهِ

وكان يعتقد انهُ لا يرجى خير لامة الاّ اذا دبت في افرادها روح الاعتماد على النفس بعد التوكل على مسبب الاسباب وعلى التعاون على خدمة العامة الأمر الذي لا يتأتى الاّ بالتربية والتعليم. ولما كان يرى نفسهُ مخلوقة لتربية الامة وتعليمها فقد كان من المؤسسين للجمعية الخيرية الاسلامية في سنة ١٣١٠ هجرية ولهُ من العمل فيها ما يجعلهُ في مقدمة اعضائها. فانهُ كان يحضُّ الامراء والعظماء والسراة على الاشتراك فيها ويحصل قيم الاشتراكات بنفسهِ اذا اقتضت الحال ذلك ويعمل كل ما في جهدهِ لارتقائها واتساع نطاقها. وكان يرى ان الفائدة الكبرى من هذه الجمعية هي تعويد المسلمين الاجتماع لاجل التعاون وشعار قلوب الاغنياء

عاطفة الرحمة والاحسان على الفقراء كما كان يصرح بذلك في الاحتفال السنوي من كل عام"

وافاض حضرة القاضي الفاضل الشيخ احمد ابي خطوة في وصف ما عمله الفقيد للازهر فنقتطف منهُ ما يأتي قال

"كان شغلهُ الشاغل لاوقافهِ الازهر واهلوهُ لعلمهِ ان في صلاحهِ صلاح المسلمين ولقد نقل عنهُ وهو بالشام انهُ لا يرتاح ولا يهدأ خاطرهُ الاَّ اذا صلح هذا المكان . وانهُ لا بدَّ ان يجهد نفسهُ ويعمل فكرهُ ويعمل في صلاحهِ وانهُ ان مات في هذا السبيل مات قرير العين . ولهذا كان دأبهُ السعي في مصلحتهِ وهو غير مكلف بهِ الاَّ من نفسهِ . فلما ان كلف بهِ من الحكومة المصرية في ١٧ رجب سنة ١٣١٢ وصدر الامر العالي بتعيينهِ عضوًا في مجلس ادارة الازهر رأى انهُ سيصل الى ضالتهِ المنشودة واخذ في كل ما يرقيهِ من كل جهاتهِ . ووافقهُ وساعدهُ على ذلك بعض كبراء مشايخ الازهر واعضاء مجلس ادارتهِ خصوصاً عضدهُ وصديقهُ الشيخ عبد الكريم سلمان

ابتدأ بالبحث عن اهل الازهر وسيرهم واخلاقهم ومعيشتهم ومساكنهم والعلوم المتداولة بينهم وطرق العلم والتعليم . فعلم انهم يستوجبون العناية والالتفات خصوصاً في امر معيشتهم لان اكثرهم من الفقراء الضعفاء . وليس لهم الاَّ قليل من خبز الجرايات يقدر بنحو خمسة آلاف رغيف في اليوم وقليل من مرتبات النقود لا تزيد عن ٣١٠ جنيهات مرتبات شهرية و٦٣٧ جنيهاً مرتبات سنوية وهي المعروفة بدل الكساوي وان مساكنهم عتيقة ضيقة . فرأى ان من اول الواجبات ان يتقدم الاصلاح المعنوي اصلاح الماديات فاجتهد مع من يدهم الامر في الحكومة حتى زيد في المرتبات الشهرية المرتبة من المالية الفا جنيه في السنة ووعدوهُ بالمزيد الى عشرة آلاف جنيه متى ظهرت فائدة الاصلاح . ثم استمطر فيوضات الجناب العالي الخديوي فافاض ما اوجب على الازهريين شكر ايادية واصدر امرهُ الى ديوان الاوقاف بترتيب ثلاثة آلاف جنيه وثلاثمائة واربعة وسبعين جنيهاً في السنة وزيد في خبز الجرايات مبالغ وافرة وعم هذا الخير الجهات الملحقة بالازهر كالجامع الاحمدي والدسوقي وعلماء دمياط والاسكندرية حتى بلغ الآن مجموع مرتبات الازهر وملحقاتهِ نحوَ اربعة عشر الف جنيه وسبعمائة وخمسين جنيهاً بعد ان كان فوق الاربعة الاف بقليل وذلك غير ما زيد لبعض اشخاص منهم وغير ما زيد في رواتب الخدم والموظفين وقد بلغت الجرايات العمومية والخصوصية في اليوم بخصوص الازهر نحو ١٥٠٠٠ رغيف بعد ان كانت ٥٠٠٠ رغيف كما قدمناهُ وذلك غير ما رتب من الجرايات للملحقات المذكورة . واما ما يتعلق بالمساكن فانهُ قد عرض امرها على الجناب

الخديوي فصدر امرهُ بشراء الاماكن المجاورة للازهر من جبتهِ الغربية ليجعل مكانها اماكن لسكنى المجاورين واستتبع هذا هدم كثير من الاروقة المعدة لسكنهم وتجديدها فكمل هذا وذاك على احسن مثال مراعى فيهِ النظامات الصحية . ثم توجهت الفكرة الى نظافة الازهر بتمامهِ فبعد ان كان يفرش في السنة مرة واحدة صار يفرش في العام مرتين وبعد ان كان يضاء بالزيت القليل الضوء حسب العادة أمسى يضاء بمصابيح الغاز التي تكفي القارئ والكاتب فسهل على الطلبة الاشتغال ليلاً . وبعد ان كانت المياه المستعملة فيهِ معينة مالحة راكدة قذرة لا توجد الاَّ بمزيد التعب والمشقة ادخلت فيهِ حنفيات شركة المياه فاصبح ماؤهُ يتجدد كل يوم نقياً صالحاً للاستعمال

كان امر الصحة في الازهر مهملاً بالمرة وكانت الامراض المعدية منتشرة فيهِ فعين لهُ طبيب يعرض عليهِ كل مَن يريد الالتحاق بالازهر من الطلاب ويعالج المرضى ويراقب تنفيذ الامور الصحية وانشئت لهُ اجزاخانة بالرواق العباسي وتحل لعيادة المرضى وصرفت لهم الادوية مجاناً فاصبح ولاهلهِ عناية تامة بالصحة من انفسهم . ولما كان هذا المحل المعد لعيادة المرضى لا يسعهم اشتغل رحمهُ الله في ديوان الاوقاف حتى تقرر انشاء مستشفى فسيح بجوار الازهر في شارع الشنواني أُعد لاقامة المرضى ومعالجتهم فيهِ خصوصاً في زمن الامراض الوبائية دفعاً لحدوث مثل حادثة رواق الشوام المشهورة وسيفتح قريباً ان شاء الله . وناهيك بامر صيانة نظام الضبط والربط في الازهر فقد زيد عدد خدمتهِ وملاحظيهِ بنسبة عدد المجاورين فيهِ فامتنع بذلك حدوث كثير من الوقائع والمشاجرات

كانت مشيخة الازهر تدار اعمالها بمنزل من يكون شيخاً لهُ يتحمل اهلهُ مشقة الذهاب والاياب على اختلاف ابعاد المسافات بين الازهر وبين بيوت مشايخهِ . وكان لهُ كاتب واحد يجلس في الازهر حيث شاء . وكانت سلطتهُ عامة طامة . فكان من عمل المرحوم وسعيهِ ان أُنشئ في المباني الجديدة مكان للشيخة والادارة . وتبينت كثرة الاعمال وان كاتباً واحداً لا يكفيها . فزيد في عدد الكتبة خمسة ووظف لمجلس الادارة العدد الكافي من الخدم حتى صارت الادارة ديواناً كبيراً واستراح العلماء والطلبة من قطع المسافات وتضييع الاوقات في الذهاب الى بيوت المشايخ وتجزت الاعمال في اوقاتها

كانت المرتبات في الازهر مبعثرة مشتتة لا ضابط لها سنويَّة كانت او شهريَّة . كانت تمنح لاناس دون اخرين فكان لبعضهم نحو الستة عشر قرشاً في الشهر وللكثير منهم الحرمان ولبعضهم ما فوق الستمائة قرش . وكان لاولاد العلماء بعض هذه المرتبات يعطونها بلا شرط ولا قيد حسبما يراهُ شيخ الجامع وحدهُ فجاء نظام المرتبات الذي اشتغل بهِ الشيخ المرحوم

اول الامر ودفع كل هذه الاستثمارات فجعل العلماء درجات على كل منهم درجتهُ ومقدار مرتبهِ فكان يأتيهم بدون كد ولا رجاء وكذلك صار الحال في المرتبات السنوية التي هي بدل الكساوي فكان لكل نوع من هذين النوعين ضوابط استوفى بها كل واحد مرتب درجتهِ وانتفع بهِ بلا حاجة الى الرجاء والاستجداء . واما اولاد العلماء فقد جعل لهم في استيلائهم على المرتبات المخلة عن آبائهم شروطاً وقيوداً الغرض منها استدامة اشتغالهم بطلب العلم ليخلفوا آباءهم فيهِ وبسبب هذا النظام استقال كثير منهم من طلب العلم لما عرفوهُ في انفسهم من الضعف عنهُ فحرموا من المرتب بمقتضى هذا القانون . ولكن الشيخ رحمهُ الله رقى لفقرهم وجمع لهم من اهل البر والخير صدقة واسعة هي مودعة في خزينة الازهر ليصرف عليهم منها كل شهر مقدار ما كانوا يأخذون من الازهر تقريباً وربما زاد

اما نظام الجرايات فكان من الحجية بمكان لا يتصور ما هو عليهِ ولا كيف رضي بهِ اهلوهُ فلم تكن الاَّ منبع ثروة للنقباء ومشايخ الاروقة والحارات وسبباً للتخاصم والتحاسد بين اهليهِ ولذلك رأى الشيخ رحمهُ الله ان يجعل لها نظام عام واشتغلت بذلك مشيخة الازهر ومجلس ادارتهِ وانتهى الامر بتشكيل لجنة للنظر فيها ووضع نظام يعم جميع الاروقة والحارات على اختلاف مقادير الجرايات فيها وجهات ورودها مراعى فيهِ شروط الواقفين ان كان لها شروط معينة والاَّ فيرجع الى قواعد الشرع الشريف. فشكلت تحت رئاسة الاستاذ الشيخ الرافعي

وكذلك وُضع لكساوي التشريف نظام حتى لا تكون في اعطائها والحرمان منها موكولة الى رأي واحد وحتى لا يدخل فيها من ليس من اهل العلم كما كان جارياً من قبل فصار استحقاق الكسوة العلمية مشروطاً بشروط مقيداً بقيود الغرض منها ان لا تمنح الكسوة الاَّ لمن وضع نفسهُ في التعليم مع مراعاة الاقدمية عند التساوي وبذلك انتقل الحال فيها ايضاً من الحجية الى النظام

هذا ما وجه اليهِ المرحوم فكرتهُ من اصلاح الماديات الذي جعلهُ مقدمة لاصلاح المعنويات وبعد الفراغ منهُ وجه فكرتهُ الى وضع نظام للتدريس والامتحان فكان كذلك واشتغلت مشيخة الازهر ومجلس الادارة بوضع قانون عام لذلك بينت فيهِ مقاصد العلوم ووسائلها وما يجب لعلوم المقاصد من العناية وتوسيع الزمن وبينت علوم المقاصد بانها هي التوحيد والتفسير والحديث والفقه واصوله والاخلاق الدينية وبينت الوسائل بانها هي المنطق والنحو والصرف وعلوم البلاغة الثلاثة وعلم مصطلح الحديث وضم اليها الحساب والجبر وتاريخ الاسلام وصناعة الانشاء ومتن اللغة وآدابها ومبادئ الهندسة وتقويم البلدان والزم طالب الامتحان للحصول على شهادة العالمية بادائهِ في المقاصد وبعض الوسائل والحساب والجبر ثم حتم

القانون على معلمي العلوم الآلية خصوصاً علوم البلاغة ان يدربوا الطلبة على تطبيق العلم على العمل وان يتجنبوا في السنين الاربع الاول قراءة الحواشي والتقارير صيانة للوقت من الضياع وغير ذلك من الاحكام الكثيرة التي ترجع كلها الى تحصيل جواهر العلوم الدينية في زمن معلوم بطريقة سهلة التناول والتحلي بمحاسن الاخلاق الشرعية والاقتدار على الانتفاع بما حصلوهُ من العلوم. وبهذا تحول الازهر من فوضى التدريس الى نوع من النظام. ولقد كانت العادة ان لا يتجاوز عدد الممتحنين من طالبي الامتحان الكثيرين عن ستة اشخاص في السنة وقد يكونون في الغالب ثلاثة اشخاص لا غير فوصل عدد الممتحنين بعد وضع هذا النظام وتنفيذهِ الى خمسة وتسعين في السنة ربما نجح منهم ما فوق الثلث وبذلك سار الامتحان في طريق التقدم وتجددت عزائم الطلبة وتكاملت رغباتهم في التحصيل. وكانت المدة التي يشتغل فيها الطالب في السنة قبل وضع هذا النظام في الازهر لا تزيد عن اربعة اشهر مقطعة في السنة كلها فصارت الآن بعد تحديد ايام العطلة بمقتضى هذا النظام تزيد عن الثمانية اشهر

هذا ما يتعلق باصول العلم والتعليم وقد اشتغل رحمهُ الله بافكار تكميلية لهذا النظام كان يعرض كل ما سنح لهُ منها على مشيخة الازهر ومجلس الادارة فاشتغلوا جميعاً بوضع قرارات تكميلية لهذا النظام صارت قواعد اساسية الى اليوم. منها ما يرجع الى كيفية تعليم المعلم. ومنها ما يبين الواجب على المشايخ في اثناء التعليم وان يكونوا قدوة للطالب في مكارم الاخلاق. ومنها ما يتعلق بسير الطالب وآدابهِ مع الاستاذ واخوانهِ من الطلبة المتعلمين معهُ. ومنها ما يتعلق بتبيين الطريقة المثلى في تعليم العلوم الآلية حتى يتوصل بها الى المقاصد وتستثمر بها الحكم التي قصدها الشرع الشريف من الاحكام. واستعان مجلس الادارة بما زيد في تقود المرتبات على هذه الامنية خصوصاً فيما يتعلق بالعلوم الحديثة فانهُ خصص منها ستمائة جنيه لمعلمي تاريخ الاسلام والحساب وتقويم البلدان وانتخب لتعليمها في الازهر معلمين كانوا قد تخرجوا في الازهر وانتقلوا الى مدرسة دار العلوم حتى لا يكون معلموها اجانب عن هذا المكان. وخصص كذلك ثلاثمائة وستين جنيهاً لتعليم الخط فاصبح هذا الفن مع سابقيهِ منتشراً في الازهر بين كل الطلبة واستفاد اهلوهُ من ذلك فائدة عظيمة فاصبحوا في هذه العلوم على حال لم تكن لتنتظر منهم. فانهُ يوجد فيهِ الآن خمسة عشر عالماً يدرّسون الحساب على احسن ما يكون في تدريسهِ بالمدارس الاميرية وثلاثة يدرّسون علم تقويم البلدان وواحد يدرّس علم الاملاء والكثير من الطلبة قد ادّى الامتحان في الحساب والجبر العالي وتحصل على الشهادة باكمال دروسهما ومن بينهم عدد كبير تقدموا في امتحان الاساتذة بالمدارس الاميرية ومدارس الاوقاف والمدارس

الاهلية وحاروا قصب السبق فيهِ على المتخرجين من تلك المدارس واحرزوا وظائف الاستاذية فيها باستحقاق وهذه احدى النتائج الحسان التي ربما كانت لا يحلم بها ولا تخطر على البال

ولما لغط اللاغطون في ان هذه العلوم احديثة ربما حالت بين الطالب وبين العلوم القديمة المتداولة في الازهر رأى المرحوم ان يعمل احصاءً عن الطلبة الذين يتقدمون لامتحان المكافآت في كل عام يقصد فيهِ تبيان حال من اشتغل بهذه العلوم الحديثة مع العلوم القديمة ومن لم يشتغل بهذه العلوم الحديثة واقتصر على العلوم القديمة. فكان كذلك ووضع رحمهُ الله طريقة لهذا الاحصاء. فظهر من بعد البحث الدقيق والتحري السديد الشديد ان نسبة الناجحين في العلوم القديمة المتداولة المقتصرين عليها اقل بكثير من الناجحين فيها من المشتغلين بالعلوم الحديثة معها. وتلي ذلك في مجمع من العلماء يوم توزيع المكافآت على الناجحين بحضور شيخ الجامع واكابر العلماء وظهر من ذلك ظهوراً جليًّا ان العلوم الحديثة العقلية تثقف الطالب وتقويهِ في فهم العلوم الشرعية وغيرها من العلوم المتداولة في الازهر

وقد رأى المرحوم ان الوسيلة في تدريس كل العلوم وتلقيها هي الكتب فلذلك وجه همتهُ الى جمع ما تشتت من كتب الازهر وجعلهِ في مكان واحد (وكلامهُ عن جمع الكتب وانشاء مكتبة الازهر لا يخرج عما نشر عن هذه المكتبة في الجزء الماضي من المقتطف. ثم استطرد الى عنايتهِ بالعربية وبآداب الازهريين ومما قالهُ في هذا الصدد)

"انهُ كان يحب للازهر ان يبلغ الغاية القصوى من الكمالات العلمية والاخلاق الدينية خصوصاً في هذا الزمن الذي انتشرت فيهِ الافكار والمدنية الغربية معلمًا ان الشريعة الاسلامية تنطبق على كثير من العلوم والمعارف والصنائع العصرية وان جوهر الشريعة يطلب من المسلمين المؤمنين الكمالات من كل وجه وانهُ يجب على المسلم ان يكون متحليًا بالفضائل متخليًا عن الرذائل. وكان شديد الحرص على ذلك في كل مجالسهِ ومحادثاتهِ سواء كان مع الازهريين او مع اي طبقة من طبقات الناس" الى ان قال:

"وبالجملة فان مقاصدهُ بالازهر وبالازهريين كانت خيرًا محضًا لا يشوبها شائبة وكانت كلها لوجهِ تعالى وابتغاء ان يترقى اهل هذا المكان المنيف الى ما يحبهُ لهم من كمال الاخلاق وعلو المكانة بين الناس. والحمد لله لم يجعل الله اتعابهُ سدًى بل قد اثمرت وهو حي وانبتت نباتاً حسناً فنجب من شبان الازهر ومن علمائهِ من يقدرون العلم حق قدرهِ ويعملون بعمل الاستاذ وفكرهِ وسيكونون ان شاء الله في المستقبل قدوة حسنة لغيرهم ويصل ثواب ذلك ان شاء الله الى من بذر هذا البذر الحسن وتعهدهُ بالتربية والتغذية"